الإمام الشافعي ومنهجه في النظر الفقهي

ينسب المذهب الشافعي إلى الإمام **محمد بن إدريس الشافعي** (150–204هـ)، أحد أبرز أعلام الفقه الإسلامي، ومؤسس المنهج التأصيلي الحديث في أصول الفقه. وقد امتاز مذهب الإمام الشافعي بجمعه بين **رواية الحديث ودقة الاستدلال**، كما عُرف بتوازنه بين المدرسة الحديثية الحجازية والمدرسة العقلية العراقية.

أولًا: النشأة والمسار العلمي

ولد الشافعي في **غزة** سنة 150هـ، وهي السنة التي توفي فيها الإمام أبو حنيفة، ونُقل صغيرًا إلى **مكة**، حيث نشأ يتيمًا في كنف والدته، التي أرسلته إلى **بادية هذيل**، لإتقان اللغة، فحفظ أشعارهم، وتفوق في الفصاحة، حتى صحح الأصمعي عليه أشعار هذيل، كما نقل الذهبي (2001، ج10، ص. 49).

حفظ الشافعي القرآن مبكرًا، وطلب العلم على فقهاء مكة، وعلى رأسهم **مسلم بن خالد الزنجي**، الذي أذن له بالفتيا وهو في الخامسة عشرة من عمره، كما أخذ عن **سفيان بن عيينة** .ثم ارتحل إلى المدينة فلزم **الإمام مالك بن أنس**، وقرأ عليه *الموطأ* حفظًا، وتأثر بمنهجه الحديثي.

تابع الشافعي رحلاته إلى **اليمن**، حيث اتصل بتلامذة الأوزاعي، ثم إلى **العراق**، حيث تلقى علم أهل الرأي على يد **محمد بن الحسن الشيباني**، فناظر، وناقش، وجمع بين مدرستي **الحديث والرأي**.

ثانيًا: تطور مذهبه

مرّ المذهب الشافعي عبر مرحلتين:

1. **المذهب القديم** :دونه الإمام الشافعي في العراق، ويمثله كتاب *الحجة*.
2. **المذهب الجديد** :أعاد فيه النظر في كثير من آرائه، ودونه في **مصر**، ويمثله كتاب *الأم* و*الرسالة*.

ومن هنا يُفرّق في كتب الشافعية بين القول القديم والقول الجديد، ويرجَّح الجديد عند الخلاف، إلا في مسائل معدودة بقي فيها الخلاف بين المتقدمين.

ثالثًا: تلامذته ونقل مذهبه

كان للإمام الشافعي عدد كبير من التلامذة في العراق ومصر، وأشهرهم:

- **البويطي** (ت: 231هـ): خليفته في مجلس التدريس.

- **المزني** (ت: 264هـ): ناصر مذهبه ومختصر كتبه.
- **الربيع بن سليمان المرادي** (ت: 270هـ): راوي كتبه.
- **الزعفراني**، و**أحمد بن حنبل** :من تلامذته في العراق، وإن لم يلتزم أحمد بمذهبه.

وقد انتشر المذهب الشافعي في مصر، والحجاز، وخراسان، وبلاد ما وراء النهر، ثم في اليمن، وشرق آسيا.

رابعًا: مؤلفاته

من أهم مؤلفات الإمام الشافعي:

- **الرسالة** :أول كتاب مستقل في علم أصول الفقه، بيّن فيه قواعد الاستدلال ومراتب الأدلة، ورد فيه على الاستحسان، وناقش عمل أهل المدينة.
- **الأم** :موسوعة فقهية ضخمة جمع فيها أقواله، واستدلالاته، ومناقشاته مع مخالفيه.
- كتب في الردود والمناظرة: مثل *اختلاف الحديث* و*إبطال الاستحسان*.

وقد نُقلت هذه المؤلفات بواسطة تلامذته، خاصة **الربيع بن سليمان**.

خامسًا: منهجه الفقهي وأصوله

أسس الإمام الشافعي مذهبه على ترتيب دقيق للأدلة الشرعية، ورفض ما لا يستند إلى أصل موثوق. وتتدرج أصول مذهبه كما يلي:

1. **القرآن الكريم**.
2. **السنة النبوية** :إذا كانت صحيحة متصلة السند، وقد ساوى بينها وبين القرآن في الاحتجاج، إذا ثبتت.
3. **الإجماع** :إذا تحقق الاتفاق.
4. **قول الصحابي** :إذا لم يُعرف له مخالف.
5. **القياس** :أصل عقلي معتبر، يُقدّم على الاستحسان.

وقد رفض **الاستحسان** كما عند الحنفية، ورأى أنه قول بلا دليل. كما رفض **عمل أهل المدينة** باعتباره دليلًا ملزمًا، وانتقد المالكية في ذلك.

ومن أقواله في *الرسالة*:

"من استحسن فقد شرّع" (الشافعي، *الرسالة*، ص. 507)

سادسًا: خصائص مذهبه

1. **الدقة المنهجية والانضباط** :مذهب مبني على أصول محررة ومفاهيم دقيقة.
2. **الجمع بين مدرستي الحديث والرأي** :بعقل نقدي مستقل.
3. **اعتماد القياس بضوابط صارمة**، مع عدم الخروج عن النصوص.
4. **رفض الرخص غير المؤصّلة**، ومعارضة التلفيق والتمييع الفقهي.
5. **انتشار مذهبه في العالم الإسلامي**، خاصة في الحجاز، ومصر، واليمن، وخراسان، وجنوب شرق آسيا.

سابعًا: شهادات العلماء فيه

- قال **مالك** حين رأى الشافعي: "سيكون لهذا الغلام شأن."
- قال **أحمد بن حنبل**" :كان الشافعي كالشمس للدنيا، وكالعافية للناس."
- قال **إسحاق بن راهويه**" :الشافعي حجة في الفقه والحديث واللغة."
- قال **الذهبي**" :كان قوي الحجة، حسن المناظرة، دقيق النظر) "*سير أعلام النبلاء*، ج10، ص. 49.(

ثامنًا: وفاته

توفي الإمام الشافعي **بمصر سنة 204هـ**، ودفن بالقاهرة، بعد أن أسس مدرسة علمية متكاملة، جمعت بين النقل المحقق، والعقل المنضبط، وأرست معالم علم أصول الفقه للمرة الأولى في تاريخ الفكر الإسلامي.

خاتمة

كان الإمام الشافعي مجددًا للمنهج، ومؤسسًا لعلم الأصول، وناشرًا لمذهب متين بُني على التعليل والدليل. وقد مثّل مذهبه **نقطة التقاء بين مدرستي الحديث والرأي**، وامتاز بضبط المصطلحات، وسلامة البناء، مما جعله مرجعًا فقهيًا مستمر التأثير في تاريخ التشريع الإسلامي.

المراجع:

- الشافعي، محمد بن إدريس .*الرسالة* .تحقيق أحمد شاكر.
- الذهبي، شمس الدين .(2001) .*سير أعلام النبلاء* .بيروت: مؤسسة الرسالة.
- عياض، القاضي .(1982) .*ترتيب المدارك* .الرباط: وزارة الأوقاف.
- ابن خلدون، عبد الرحمن .(2004) .*المقدمة* .بيروت: دار الفكر.